للطلب بدم عثمان، وأنه لا يستقيل من بيعته للخليفة علي بن أبي طالب ﷺ إن هو لم يحل بينهم وبين قتلة عثمان. وكان جواب الزبير مطابقًا لجواب طلحة[1].

ولا تقدم لنا المصادر معلومات على التعرف على خطة كل من عائشة وطلحة والزبير ﷺ في الطلب بدم عثمان دون أن يمس ذلك بمقام الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ ومكانته بصفته خليفة للمسلمين. ويبدو من الجمع بين مختلف المواقف والروايات أن الخطة كانت تتلخص بإقناع أهل البصرة والكوفة للقدوم على المدينة ومعاقبة قتلة عثمان ﷺ وطرد الخارجين على عثمان منها، ثم تحرير الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ من تسلطهم عليه وإطلاق يده في إدارة شؤون المسلمين بطريقة سليمة[2]. ويلاحظ أن هذه الخطة كان قد سبق لكل من طلحة والزبير أن عرضاها على الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ حينما كانا في المدينة فلم يقتنع بها كما أوضحنا ذلك آنفًا لأنه كان يخشى أن يؤدي ذلك إلى نوع من الحرب الأهلية ويخرجه عن السياسة التي كان يعتزم اتباعها.

1- التوجه إلى البصرة ووقعة الجمل:

لقد استطاع طلحة والزبير وعائشة أن يحشدوا جيشًا بلغ تعداد أفراده حوالي ثلاثة آلاف رجل، وتوجهوا به إلى البصرة، على أمل الحصول على تأييد أهلها لخطتهم في معاقبة قتلة عثمان ﷺ[3]. غير أنهم ما كادوا يصلون إليها حتى وجدوا أن أهل البصرة كانوا منقسمين على أنفسهم تجاه هذه المسألة، وقد أدى وصولهم إليها إلى تعميق أسباب الفرقة والانقسام وحصل بينهم وبين أنصار الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ في المدينة مصادمات متعددة وقتال انتهى بسيطرتهم على المدينة وإبعاد عثمان بن حنيف والي البصرة عن عمله بعد ضربه والتشهير به[4].

لقد عدّ الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ تحركات طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة نوعًا من الخروج على خلافته، فقال حينما بلغته أخبارهم من مكة، فقال: "إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالأوا على سخط إمارتي، ودعوا الناس إلى الإصلاح، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغني منهم"[5].

---

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص 461 – 462.

(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 461.

(3) المصدر نفسه، ج 4، ص 452.

(4) المصدر نفسه، ج 4، ص 463 – 470.

(5) المصدر نفسه، ج 4، ص 446.

غير أنه اضطر، حينما بلغته أنباء سيرهم إلى البصرة إلى دعوة الناس للتعبئة والخروج معه إليهم، لأنه خشي أن يؤدي عملهم إلى "انقطاع نظام المسلمين"[1]، أي الفوضى واشتعال نار الحرب الأهلية.

وتشير الروايات التي أوردها الطبري إلى أن أهل المدينة قد تثاقلوا عن تلبية نداء الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ للخروج معه وفضلوا البقاء في المدينة، فلم ينهض "في تلك الفتنة إلاّ ستة بدريين ما لهم سابع، أو سبعة ما لهم ثامن"[2]. وحينما أرسل الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ إلى عبد الله بن عمر يدعوه للخروج معه اعتذر بقوله: "أنا مع أهل المدينة، إنما أنا رجل منهم، وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم لا أفارقهم، فإن يخرجوا أخرج، وإن يقعدوا أقعد"[3].

ولا تزودنا المصادر بمعلومات دقيقة عن عدد الرجال الذين خرجوا معه مع أهل المدينة، فيذكر الطبري أن الخليفة عليًا ﷺ خرج في "تعبيته التي كان تعبى بها إلى الشام، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين في سبعمائة رجل"[4]. أما المسعودي فإنه يذكر أن الخليفة عليا سار إلى البصرة بعد حوالي أربعة أشهر من توليه الخلافة "في سبعمائة راكب منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار"[5].

إن ما تقدم يشير إلى قلّة عدد من ساهم في جيش الخليفة علي من أهل مكة والمدينة، لذا فإنه قد اضطر إلى الاعتماد بصورة كبيرة على أبناء القبائل في الأمصار، فأرسل إلى أهل الكوفة يستنفرهم لمعاونته، فأرسلوا له نحوا من "سبعة آلاف، وقيل ستة آلاف وخمسمائة وستين رجلاً منهم الأشتر"[6].

لقد ترتب على الأمور الآنفة الذكر أن وجد الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ نفسه مضطرًا للاعتماد بصورة رئيسة على أهل الكوفة ونقل عاصمة الدولة إليها، لأن فيها الرجال والمال، مما سيؤدي إلى زيادة تأثير أهل الكوفة على سياسة الخليفة عليّ بن أبي طالب ﷺ بكل ما ينطوي عليه هذا التأثير من نزعات قبلية وإقليمية حادة[7].

وقبل أن يغادر الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ المدينة عيّن على ولايتها تمام بن

---

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص 446.
(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 447.
(3) المصدر نفسه، ج 4، ص 446.
(4) المصدر نفسه، ج 4، ص 455.
(5) السمعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 395 – 396.
(6) المصدر نفسه، ج 2، ص 396.
(7) الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص 58 – 59.

العباس، وعين على ولاية مكة قثم بن العباس ليحل محل عبد الله بن عامر الحضرمي الذي كان قد وقف إلى جانب طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة[1].

وحين وصل الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ إلى البصرة كان حريصًا على حل الخلافات مع طلحة والزبير وأم المؤمنين بصورة سليمة. وقد عبّر عن ذلك حين سئل عن مقصده من الخروج فقال: "أما الذي نريد وننوي فالإصلاح، إن قبلوا منّا وأجابونا إليه، قال: فإن لم يجيبوا إليه؟ قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر، قال: فإن لم يرضوا قال: ندعهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم"[2].

إن الترجمة العملية لهذا التوجه لو صحت هذه الرواية كانت تتطلب أن يبقى الخليفة عليّ بن أبي طالب ﷺ في المدينة ويسعى إلى حل الخلافات مع خصومه عن طريق المفاوضات. أما وقد خرج، وأصبح الجيشان المتخاصمان يتقابلان وجها لوجه في ساحة المعركة فقد غدا من الصعب جدًا السيطرة على الموقف وتغليب الحكمة وروح الإصلاح على حسم الخلاف عن طريق القتال.

وقد أورد الطبري روايات مستفيضة عن مفاوضات جرت بين أنصار الخليفة عليّ بن أبي طالب ﷺ وأم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير حتى كادوا يتوصلون إلى اتفاق نهائي على حل الخلافات بينهم. وقد أدخل هذا الأمر الرعب في نفوس قتلة عثمان ﷺ وأنصارهم لأنهم أدركوا أن نتيجة الاتفاق ستكون وبالا عليهم[3]. "فبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط، قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلّها، حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر، واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر، فغدوا مع الفلس، وما يشعر بهم جيرانهم، انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالا، وعليهم ظلمة، فخرج مضريهم إلى مضريهم، وربعيهم إلى ربعيهم، ويمانيهم إلى يمانيهم، فوضعوا فيهم السلاح، فثار أهل البصرة، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم"[4].

وهكذا تم إشعال نيران معركة ضارية لأول مرة بين المسلمين، فقتل المسلم أخاه المسلم، وقد دعيت هذه المعركة بوقعة الجمل، لأن المعركة دارت حول الجمل الذي

(1) الطبري: تأريخ، ج 4، ص 455.
(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 479؛ انظر ايضا: ص 487.
(3) المصدر نفسه، ج 4، ص 488 – 494.
(4) المصدر نفسه، ج 4، ص 506.

كان يحمل هودج أم المؤمنين عائشة ﷺ[1].

وقد قتل في هذه المعركة أعداد كبيرة من مقاتلي الطرفين كان على رأسهم طلحة وابن الزبير. وقد بالغت المصادر كثيراً في عدد من قتل في هذه المعركة، فذكر المسعودي أن قتلى "أصحاب الجمل من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفًا، وقتل من أصحاب علي خمسة آلاف"[2]. وقد علق المسعودي نفسه على هذه الأعداد بقوله: "وقد تنازع الناس في مقدار من قتل من الفريقين، فمن مقلل ومكثر، فالمقلل يقول: قتل منهم سبعة آلاف، والمكثر يقول عشرة آلاف.. على حسب ميول الناس وأهواء كل فريق"[3].

والحقيقة أن التقديرات الآنفة الذكر عن عدد القتلى قد تزيد على عدد الرجال الذين شاركوا في معركة الجمل، وإن المرء ليحار كيف يوفق بين هذه التقديرات، وبين القائمة التي أوردها خليفة بن خياط بأسماء قتلى معركة الجمل التي تضمنت حوالي الخمسين اسما، فضلا عن ستين شخصًا آخرين نسبهم إلى قومهم ومن غير أن يذكر أسماءهم[4].

إن ما تقدم يدل على أن عدد القتلى في هذه المعركة كان لا يتجاوز المئات على أبعد تقدير، غير أن ميول الرواة وأهواءهم قد ضخمت الأعداد فجعلت من المئات آلافًا. وربما كان ذلك تعبيرًا عن إحساسهم بعظم المصيبة التي أصابت المسلمين في هذه الوقعة الأليمة.

ومهما يكن من أمر فقد انتهت هذه المعركة بانتصار جيش الخليفة عليّ بن أبي طالب ﷺ، وتأكيد سلطانه على البصرة والكوفة وبقية أقاليم الدولة العربية الإسلامية عدا بلاد الشام. وكان ذلك بعد توليه الخلافة بخمسة أشهر وواحد وعشرين يوما[5].

ويلاحظ أن الخليفة عليّ بن أبي طالب ﷺ لم يظهر شيئا من الفرح أو الابتهاج بهذا النصر كما يفعل القادة في مثل هذه المناسبات، بل ظهر عليه الحزن والتوجع على من قتل من الطرفين، وصلى عليهم وترحم على أرواحهم[6]، وأمر ألا تؤخذ أموالهم

(1) ابن خياط: تأريخ، ج 1، ص 172 – 173.
(2) المسعودي: مروج الذهب، ج 4، ص 387 – 388.
(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 388، راجع ايضا ؛ ابن خياط، تأريخ، ج 1، ص 167، الطبري: تأريخ، ج 4، ص 539.
(4) ابن خياط: تأريخ، ج 1، ص 167 – 172.
(5) المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 388.
(6) الطبري: تأريخ، ج 4، ص 538.